فإن سردية "فون هارف" تُعتبر ذات مصداقية على الأقل حتى مغادرته سيناء إلى مكة المكرمة، ويُصبح موثوقًا به مرة أخرى مع وصوله إلى فلسطين. ولكن لا يمكن توقع أن يُصدّق أحد زيارته للهند، أو رحلته إلى نهر النيل. يكفي أن نقول إنه لم يحتوفقط في هذا الجزء على هراء وروايات غير حقيقية وغير قابلة للتصديق، لكنه أيضًا يكشف عن المفاهيم الخاطئة عن جغرافية المحيط الهندي، وينص على أن منابع النيل هي رحلة لمدة 72 يومًا من القدس!

إذا كنا لا نؤمن برحلة "فون هارف" للحج إلى مكة المكرمة، يُمكننا أن نفترض أنه ذهب من مصر إلى فلسطين، لكنه أدرج روايات خيالية للرحلة من شأنها أن تُعيده مرة أخرى إلى نقطة البداية، حيث يُمكنه أن يستأنف رواية ذات مصداقية. إذا كنا نعتقد في ذلك، يجب علينا أيضًا أن نعتقد أنه بعد وصوله إلى عدن، أو ربما سقطرى، عاد إلى مصر بطريق لم يكشف عنه، وفضل التظاهر بأنه أجرى رحلة أطول بكثير، وليس مجرد إضافة إلى سفره الحقيقي. يبدو الأول أكثر احتمالاً، ولكن الأدلة القاطعة لا يُمكن أن تُتاح إلا من التفاصيل التي يعطيها لرحلته في الجزيرة العربية.

في البداية، يبدو أنه ارتكب خطأ حول الاتجاه الذي كان يُسافر إليه؛ يجب أن يكون جنوب أو جنوب شرق بمجرد أن يمر برأس خليج العقبة. ويتحدث عن السفر شرقًا لمدة أربعة أيام من الطور إلى "نيجرا Negra". أيًا ما كان. فإنه لا يذكر أي تغيير في الاتجاه، ويصف البحر الأحمر كفرع غربي من المحيط الهندي. فإن تقديراته للوقت المستغرق قصيرة للغاية. وهو فقط ستة وعشرين يومًا من وقت السفر الفعلي بين القاهرة ومكة المكرمة، في حين أن قوافل الحج عادة ما تستغرق ما يقرب من أربعين يومًا، ويدّعي أنه أنجز الرحلة من مكة المكرمة إلى عدن في ستة وأربعين يومًا. غياب أسماء الأماكن، التي يُمكن التعرف عليها لافت للنظر. بعد مغادرته الطور، ذكر عشر مدن في شبه الجزيرة العربية، من بينهم مكة المكرمة، وهي الوحيدة التي أعطاها اسم معقول. في حين أنه ادعى أن عدن اسمها "ماداش"، ربما الاسم الذي عرفها به بطليموس!. والباقي لا يُمكن تحديده على نحو مرض، على الرغم من أنه انضم إلى قافلة الحج في الطور، ومن ثم من المفترض أن يمر من خلال المدينة المنورة فإنه لا يُشير إليها مطلقًا، إلا من خلال اسمها قبل الإسلام، يثرب، وفيما يبدون أنه نقلها عن الجغرافيين العرب الكلاسيكيين مع نوع من التحريف قليلا، حيث أوردها في كتابه (تريبا).

كما أن وصفه لزيارته لمكة المكرمة غريب جدًا. على الرغم من أنه كان يُسافر صراحة كمسيحي، وأنه وعدد من المسيحيين واليهود الآخرين رافقوا قافلة الحج الشامي حتى كانوا على بعد حوالي ميلين ونصف (نصف ميل ألماني)، وعلى مرأى من مكة المكرمة. ومن اللافت للنظر أنه يشير إلى السماح للمسيحيين بالبقاء مع الحجاج بعد الإحرام، أو ارتداء رداء الحج، والتي تتم في أبيار علي بعد مسيرة يوم واحد جنوب المدينة المنورة، وأنه من الغريب استمرار أنه لا ينبغي أن يسمح له برؤية مكة المكرمة اطلاقًا، ولو حتى من الخارج. ومع ذلك، فقد تحمل الملوك درغام، وهو أحد المسيحيين المرتدين عن الإسلام، الخطر الهائل المتمثل في أخذه إلى المدينة متنكرًا بشكل مناسب. ومكة المكرمة تلك المدينة الواقعة بين جدران صخرية قاحلة في واد اتساعه حوالي نصف ميل، تبدو إلى "فون هارف" مدينة ممتعة جدًا، وتحيط بها حدائق جميلة من الأشجار مع الفاكهة النادرة، وإلى جانبها نهر دقيق وكبير ينحدر جنوبًا إلى المصب في البحر الأحمر. والحقيقة أن مثل هذا النهر لا وجود له في أي مكان بالحجاز. على الرغم من أن المسافرين الأكثر موثوقية في الجزيرة العربية في بعض الأحيان يخطئون ويعتقدون أن مجرى السيل نهر. في مكة، ومع ذلك، لا تتدفق تيارات جارفة بجانب المدينة. ويُضيف "فون هارف" إن المسجد: "بُني كمكان ذو مكانة رفيعة على الأرض"، وهي ملاحظة غريبة لمن رأى مآذن القاهرة والمساجد في بلدان الشام، بالنسبة لارتفاع الكعبة هو فقط حوالي 50 قدمًا، والجدار المحيط حوالي 25 قدمًا. وهو يُخبرنا أن جميع من دخلوا كاشفو الرأس وعاريو القدمين، وهم يجب أن يكونوا عراة الرأس لو كانوا يرتدون الإحرام، ولكن ليس بالضرورة أن يكونوا حفاة القدمين. مشط القدم يجب أن يكون مكشوفًا، ولكن الحاج في الغالب يرتدي صندلاً. واصلوا إلى "الطرف الشرقي للكنيسة" حيث كان قبر محمد. الكنيسة "(كيرش) هي كلمة غربية تطلق على الفناء المفتوح الذي يحيط بالكعبة. أما بالنسبة للمقبرة، فإن السيد (ليتس) يلاحظ أن الكعبة تبدو مختلطه مع قبر محمد في المدينة المنورة، ومن الملاحظ كم كان هذا الخطأ شائعًا. كل التشابه هو أن الكعبة تقف في الوسط، وليس في الطرف الشرقي من ساحة الفناء، وارتفاعها حوالي 50 قدمًا وطولها 40 قدمًا و اتساعها 33 قدمًا، (فون هارف) أعطي قياسات المقبرة التي رآها كالآتي 5 في 10 في 4 أقدام.

في الحقيقة هذا الوصف يبدو رواية مختلطة للمدينة. ضواحيها تستحق الثناء أفضل من تلك التي في مكة. كتب السيد "إلدون روتر" أن المنطقة الواقعة بين المدينة المنورة وحراء Harra "مزروعة بكثافة" من أشجار النخيل في ظل زراعة الذرة والخضار. هناك مجرى مائي يمر على طول الجدار الجنوبي، ومن خلال الضواحي الشرقية. المسجد النبوي، الذي تم توسيعه مؤخرًا من قبل قايتباى من المحتمل أنه أكثر إبهارًا للزائر من الحرم في مكة بارتفاعه. محمد دفن بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية، وعلى الرغم من أن القبر ليس ظاهرًا للزوار. أخبر بيرتون أنه كان كتلة من الرخام. المرء كان يفترض فقط أن "فون هارف" قد سمع وصفًا للمدينة المنورة، وقبل به كوصف مكة المكرمة لأنه، مثل الكثير من معاصريه في أوروبا، كان يعتقد أن محمد دفن هناك، وأن قبره كان هدفًا للحج للمسلمين.

وليس من الضروري أن نأخذ في الاعتبار القليل الذي دونه "فون هارف" حول بقية رحلته العربية. إنه يشير إلى أربعة أنهار كبيرة، واحدة منها يصب في البحر في عدن، إلى مجتمعات المسيحيين الإثيوبيين، إلى مدينة ثلاثة وعشرين يومًا من السفر خارج مكة المكرمة، حيث "الكلدانية" (يفترض السريانية)، كما كانت تتطق وملك سبأ Saba الذي كان خاضعًا لـ "الرب العظيم للهند".

قد تكون الأنهار، إلا في عدن، قد تم تفسيرها على أنها سيول سقطت على الوديان، ولكن المسيحيين والمتحدثين السريانيين بالتأكيد ليسوا على حق. ويقترح السيد ليتس هذا بواسطة الرب في الهند يعني الكاهن يوحنا هو المقصود حقًا. ومع ذلك،

لودفيكو دي فارتيما

فإن البيان غير صحيح. في هذا الوقت كان الجنوب الغربي للجزيرة العربية مستقل تمامًا عن إثيوبيا.

لودفيكو دي فارتيما

وفي عام 1503 رحل إلى الإسكندرية شاب صرّح أنه ينوي القيام برحلة تعتبر من أشق وأصعب أنواع الرحلات التي نسجها خياله، وطغت على أفكاره، فهذا الرجل كان ينوي أن يكون أول رجل مسيحي يتجه إلى مكة المسلمة، وعندما غادر إيطاليا لم تكن تلك الفكرة قد استحوذت عليه، بل يبدو أنه بدأ بالتفكير بتلك المغامرة، عندما رأى الفرصة مناسبة لتحقيقها. والأمر الأكيد هو أن هذا الشاب المدعو لودفيكو دي فارتيما Lodvica Di Var Thema كانت تنتابه بعض الهواجس، وكان يتوق إلى القيام بشيء جديد، كما يتوق الظمآن للماء العذب.

وفي 8 أبريل 1503 انطلق حوالي أربعون ألفًا من الحجاج في الصباح الباكر تكتنفهم أصوات الجمال وصرخات سائقي الإبل والغبار المنطلق ليملأ جو ذلك النهار الربيعي، وكان فارتيما يراقب كل شيء، وبرفقته ستون حارسًا مثله، وهو ممتط صهوة حصانه، وكانت القافلة تسير بشكل متعرج ملتو وبدأت تلك الحركات المعقدة في جانبه وخلفه والتي أكدت له أخيرًا أن مغامرته الحقيقية قد بدأت وأصبحت في حيز الوجود والتنفيذ.

المصادر والمراجع

- سمير عطا الله: قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية والخليج، (بيروت: دار الساقي، 1994)، ص 49، 50.
- جمال محمود حجر: الرحالة الغربيون في المشرق الإسلامي في العصر الحديث، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2008)، ص 19-29.
- نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1987)، ص 241، 242.
- أسعد عبد الفارس: "الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم"، في كتاب دارة الملك عبدالعزيز: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الجزء الأول، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 2000)، ص 471 – 476.
- Beckingham C. F. : "Some Early Travels in Arabia". The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland . No. 2 (Oct. , 1949). pp. 155- 176.

قلادة الإحسان

جاء في ترجمة الشيخ فالح الصغير السبيعي من أهل الزلفي (ت1359) وهو العالم الذي قَضَى جُلَّ حياته بين العلم والتحصيل والدعوة والتدريس والقضاء، مُتنقِّلًا بين أرجائها، برغم الصعوبات، وشِدَّة المؤونة، وضنك العيش في كتاب "عصارة الشهد في ذكريات الوالد عن الجد ص68-69" ما نصه (بتصرف):

ومن كرمه وسخائه رحمه الله أن حضرت زوجة جاره ذات مرة إلى زوجته أم عبدالله سارة الفايز رحمهما الله، فبكت عندها بكاء شديدًا لا شعوريًّا، فقالت زوجة الشيخ: ما يبكيك؟

فأجابتها قائلة: عندي رغبة شديدة وأتمنى أن أحج هذا العام، فالقافلة ستسير اليوم أو غدًا، وأبو فلان (زوجها) رفض أن أحج، وأخشى على نفسي من الموت!! فقد كانت رحمها الله حريصة على الحج مع فقرها، وضنك عيشها، وضيق ذات يدها ويد زوجها- أدع المقارنة مع نساء العصر للقارئ الكريم- فسكتت زوجة الشيخ، فلما عاد الشيخ إلى بيته، أخبرته أم عبدالله الخبر، فذكر الله، وأشخص يتأمل، فلما صلى بالمسجد استدعى جاره، وقال: يا فلان نريدك معنا بالحج أنت وأم فلان، قال: يا شيخ والله إن نفسي تتقطع رغبة في الحج، ولكن والله لا أملك عشائي هذه الليلة، فكيف سأحج؟

قال الشيخ: قد اشتريت لك ذلولًا من مال عندي أمانة، وكتبته في ذمتي، لأنه لا يملك مالًا رحمه الله، وزادك عليَّ، لكن نريدك معنا، فانطلق الجار فرحًا وبشر امرأته، فذهبا هو وزوجته وحجَّا مع الشيخ.

ولأن الله يأبى إلا أن يكرم من أكرم ضيوفه، فلما عاد الشيخ من حجه باع الذلول (الناقة) بضعفي قيمتها.

كم تعجبت كثيرًا عندما قرأت هذه النادرة في طيات هذا الكتاب، ولا ينقضي العجب من كل تفاصيلها وأبعادها، فمن أدب وكياسة في الطلب من تلك المرأة التي عرضت حاجتها بطريقة تأبى النفس السوية رفضها، إلى امرأة استطاعت بكياسة وفطنة من نقل ذلك الطلب إلى زوجها، إلى رجل حكيم، بعيد النظر، مجرب، استطاع بكل سلاسة وذكاء من تلبية حاجة الزوجة وزوجها، دون أن يخدش لهما كرامة، مع ضيق ذات يده، وقلة موارده، ولكنها النفس الأبية التي تحيل شدائد الأمور إلى تجارة رابحة، ويجازف بمال دين عنده، ويوثقه على نفسه، ويبلغ العجب منتهاه (ولا عجب)، وهو إكرام الله المطلع على خفايا النفوس وسرائر الصدور، لهذا المحسن الأبي النبيل، وهو لذلك أهل وجدير، بأن يمكنه من بيع ناقته بضعفي ثمن شرائها.

إن العجائب في طيات بعض القصص لا تنتهي، وكذلك عجائب تدبير الله لعباده وإحسانه وإكرامه لهم، أكثر وأعظم من أن يحصيها بشر، أو يخطها قلم، أو يحويها سفر.

وصَدَقَ أبو حنيفة رحمه الله حينما قال:

الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ مِن كثير من الفِقه؛ لأنها آدابُ القوم وأخلاقهم.

وقال الجنيد: الحكايات جند من جنود الله عز وجل يقوي الله بها إيمان العباد، فقيل له: هل لهذا من شاهد؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ هود: 120.

وكذلك ما ذكره الإمام ابن القيِّم عندما قال:

مفتاح حصول الرَّحمة الإحْسَان في عبادة الخالق، والسَّعي في نفع عبيده.

أتذكر في هذا السياق مقولة الفيلسوف والكاتب الإنجليزي فرانسيس بيكون عندما قال:

الرجل الحكيم يصنع من الفرص أكثر مما يجد.

محمد بن عبدالله الفريح

الرياض @malfriah